مفهوم الرثاء لغة واصطلاحا:

الرثاء لغة:

يمكن تعريف الرثاء في المعاجم على أنه اسم صوت البكاء مع الكلام على الميت، ورثى فلان فلانا ،إذا بكاه بعد موته، ورثوت الميت أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت قيه شعرا[1]،وهي مصدر للفعل رثى يرثي فهو راث ومرثي، ومعنى رثى أي بكى أو بكى أو كتب كلاما على أحد الميتين، والرثاء هو صوت البكاء مع الكلام على الميت [2]، أما الرثاء عند الخليل بن أحمد فهو يعني البكاء على الميت ومدحه[3].

وانطلاقا من هذه التعاريف في الجانب اللغوي نجدها كلها تصب في نفس السياق ألا وهو البكاء والنحيب على الميت و ذكر صفاته وأخلاقه النبيلة والدعاء له وحقهم على الصبر لفقده.

الرثاء اصطلاحا :

أما من الناحية الاصطلاحية نجد مفهوم الرثاء يتعدد في دلالته ومعانيه عند الأدباء والنقاد ، فعلى سبيل المثال نجده عند المبرد يعني:"التعزية،والعزاء هو السلو وحسن الصبر على المصائب"[4].

أما عند النويري يرى أن:" المراثي جعلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها، وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابها، وتأسية لمن سبق إلى هذا المصرع ،ونهل من هذا المشرع " [5]

أما عند أبي البقاء الرندي، فالرثاء هو في ثلاثة مواضع عنده التوجه والتأبين والتعزية حيث يقول في كتابه الوافي في نظم القوافي: " التوجع يكون بتعظيم الرزء وإجلال الخطب و إعمال التأسف والتأبين بذكر مآثر المرثي ومكارمه ووصف ما يجب له،وأما التعزية فبالحض على الصبر والترغيب في الأجر والتأسي بالسلف فيما ناب عن مجامع الدنيا"[6]

ومنه فالرثاء في اللغة أو الاصطلاح له معاني تصب كلها في الحزن والبكاء والتوجع والتعزية ولكن إذا ربطنا هذه المعاني بالأوطان والمدن نجدها تعني الفقد والتأوه عن فقد الوطن والمدن لا الأشخاص وهذا ما سوف أبينه في المطلب الموالي .

المبحث الثاني: رثاء المماليك والمدن والبكاء والحنين إلى الأوطان في الشعر الأندلسي

المطلب الأول: الحنين إلى الوطن

أولا – تعريف الحنين:

لقد أخذ مصطلح الحنين تعريفات جمة في المعجمات والكتب العربية فنجده مثلا يعني في القاموس المحيط: « الشوق وشدة البكاء والطرب، أو صوت الطرب عن حزن أو فرح »[7] ،أما في مختار الصحاح للرازي فهو:« الشوق أيضا وتوقان النفس »[8]، فهذا عن مصطلح الحنين،أما عن الشعر المتصل بهذا الموضوع، فيعتبر لونا شعريا كغيره من الألوان والأغراض الأخرى التي ظهرت في الأدب العربي كالرثاء والغزل والوصف والهجاء والحكمة والمدح وغيره من المواضيع التي عرفت في شعرنا العربي.

وقد حاول بعض الدارسين أن يحملوا بعضا من ملامحه العامة التي تميزه عن غيره من الألوان، وهذا ما يتجلى في كلام(**وهب رومية**) إذ يصفه بأنه:« شعر وجداني عذب رقيق، يتوهج بالشوق ويفيض بالمشاعر الإنسانية الأصيلة ويمور بالعاطفة الصادقة، شعر مفعم بحزن إنساني شفيف،فيه صفاء الدمع وحرارته،ورقة الحب وانكساره وقسوة الحزن وصفاؤه ولهفة المشتاق الخائب،وصبوة العاشق المحزون الذي لا يستطيع أن يتوب عن الشوق، ولا يقوى على التجمل بالصبر شعر تخالطه مرارة إنسانية عميقة،أو بوح نفسي شفاف كقطعة من الماس يستبطن الذات فيصور أحاسيسها وانفعالاتها وانكساراتها، وخيباتها فتبرز فيه لحظة الضعف الإنساني بكل فتنتها وبهائها »[9].

فإذن الحنين وانطلاقا من هذا القول يقطر شوقا،ويمتاز بالعذوبة والرقة والصدق، العاطفي، كما نجده يخيم عليه الحزن والإغراق فيه والشفافية والصفاء في إظهار الأحاسيس والانفعالات وتصويرها.

ثانيا– تعريف الوطن:

إنّ كلمة الوطن كغيرها من الكلمات التي تناولها الباحثون وتعقبوها بالدراسة،فإذا ما بحثنا عنها في المعاجم العربية نجدها تعني في لسان العرب معاني عديدة، «فالوطن هو المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله، والجمع أوطان، وأوطان الغنم والبقر، مرابضها وأماكنها التي تأوي إليه.

ومواطن مكة: مواقفها وهو من ذلك وطن بالمكان وأوطن أقام وأوطنه اتخذه وطنا، يقال أوطن فلان أرض كذا وكذا أي اتخذها محلا ومسكنا يقيم فيها وأوطنت الأرض ووطنتها توطينا واستوطنتها؛ أي اتخذتها وطنا وكذلك الإتطان، وهو افتعال منه غير:أما المواطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له، كقولك: إذا أتيت فوقفت في تلك المواطن فادع الله لي ولإخواني، وتوطين النفس على الشيء: كالتمهيد، وطن نفسه على الشيء وله فتوطنت حملها عليه فتحملت وذلت عليه، وقيل: وطّن نفسه على الشيء وله فتوطنت حملها »[10]،أما في "أساس البلاغة" للزمخشري فكلمة«وطن هي: كل يحب وطنه وأوطانه وموطنه، والإبل تحن إلى أوطانها، وأوطن الأرض ووطنها وتوطنها واستوطنها، ومن المجاز: هذه أوطان الغنم لمرا بضها »[11]

أما في القاموس المحيط للفيروز أبادي فكلمة « وطن تعني: محركة ويسكن: منزل الإقامة، ومربط البقر والغنم،ج أوطان، ووطن به يطن وأوطن:أقام،وأوطنه ووطنه واستوطنه: اتخذه وطنا»[12].

وتجدر الإشارة إلى أن هناك ألفاظا في اللغة العربية تؤدي المعنى نفسه لكلمة وطن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مغاني « وهي المواضع التي كان بها أهلوها »[13] ،والأرض: « التي عليها الناس »[14] ومعهد وهو في لسان العرب:«الموضع كنت عهدته أو عهدت هوى لك أو كنت تعهد به شيئا والجميع المعاهد »[15] .

فقد ظهر مفهوم الوطن ومنذ القديم وتطور عبر العصور وهذا ما تعكسه مختلف أشعار الشعراء، حيث كانت نزعة الحنين إلى الوطن شائعة عندهم.

المطلب الثاني : بعض الأشعار المتداولة في رثاء المدن وبكاء الأوطان .

يعتبر رثاء المدن من المواضيع المهمة في تاريخ الشعر العربي وهو نوع من أنواع الرثاء في الشعر، ظهر هذا النوع لأول مرة في العصر العباسي وكان رائده ابن الرومي ولكن رثاء المدن لم يشتهر كثيرا حتى جاء العصر الأندلسي وبدأت المدن الإسلامية تتهاوى واحدة تلو الأخرى في يد الإسبان، فظهر رثاء المدن في تلك الفترة بقوة، فتوسعت معانيه وازداد كاتبوه وكان انعكاسا أدبيا على سقوط المدن الإسلامية في الأندلس،وعلى نكسات المسلمين وهزائمهم في تلك البلاد ،ويعد رثاء المدينة من قبيل مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي إذ لم يكن هناك مدن يبكي على خرابها في العصور السابقة لذلك العصر، ومن

أشهر القصائد التي بها رثاء الممالك مرثية أبي محمد عبد المجيد بن عبدون والتي كان يرثي بها أصحاب بطليوس من قتلى بني الأفطس والتي كان أولى أبياتها [16]: قال :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

كما قال :

أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة فالبيض والسمر مثل البيض والسمر

فلا يغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر [17]

ويظهر لنا من خلال هذه الأبيات أن الشاعر استطاع أن يصور بني الأفطس يخلد مآثرهم،حيث كان وفيا لأولئك الذين أحسنوا له فأطلق لسانه مادحا فيهم ولآثارهم مخلدا .

وقد رثى ابن الرومي مدينة البصرة بعدما تعرضت للحرق والقتل من طرف الزنج رثاها ابن الرومي مصورا ما حل بها وبأهلها من الدمار قائلا : [18]

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

أي هول رأوا بهم أي هول حق منه تشيب رأس الغلام

إذ رموهم بنارهم من يمين و شمال و خلفهم و أمام

كم أخ قد رأى أخاه صريعا ترب الخد بين صرعى كرام

لقد تطور شعر رثاء المدن والممالك في الأندلس تطورا ملحوظا وظهر بحلة جديدة ، فشرع الشعراء في تصوير التدمير والتخريب الذي ألحقه الأعداء بالحواضر الإسلامية في الأندلس وغالبا ما كان ذلك في موقف الاستنجاد والرثاء لعلهم بذلك يثيرون الهمم ويحركون العزائم .

وتعد بلنسية من أهم المدن الأندلسية التي تغلب عليها الروم وعاثوا فيها فسادا وأحرقوها فكان لذلك أثر في نفس ابن خفاجة حيث قال عنها راثيا لها : [19]

عاثت بساحتك العدا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

وإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها و تمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت ولا الديار ديار

فالشاعر في هذه المقطوعة يصف ما آلت إليه مدينته بصوت شعري مهزوم معبرا عن الخراب والدمار الذي حل بمدينته.

أما هارون بن موسى الأشبيلي فقد حمل الدهر مسؤولية ضياع اشبيلية يقول [20]

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى لم يرع فيك الردى إلا ولا ذمما

جرت عليك يد للدهر ظالمة لا يعدل الدهر في شيء إذا حكما

ما كنت أحسب أن الحادثات إذا همت بك السوء لا تلقي لك السلما

ولا توهمت ذاك الحسن يطمسه ريب الزمان ويكسو نوره الظلما

فالشاعر حزين لما حل بمدينته من الخراب والظلم وجور الدهر وتبدل النعيم وهو في كب هذا ناقم على الأيام التي كانت سببا في ضياع مدينته.

وفي مقطوعة أخرى يصور أبا القاسم عبد الرحمان بن عبد الله السهيلي ما فعله الصليبيون ببلدته يقول [21]

يـــا دار أين البيض والآرام أم أين جيران علي كرام

راب المحب من المنازل أنه حيــا فلم برجع غليه سلام

دمعي شهيدي أنني لم أنسهم إن السلو على المحب حرام

طارحت ورق حمامها مترنما بمقال صب والدموع سجام

يا دار ما فعلت بك الأيـــام ضامتك والأيام ليس تضام

فالشاعر في مقطوعته يقف على أطلال بلدته التي دمرت وشرد أهلها حتى صارت خرابا، ومن ملامح الخراب رحيل الأهل والأحباب والأصحاب.

ونجد ابن الآبار في سينيته يطلب النجدة للأندلس وهذا ما يؤكد خطورة الوضع هناك مما استدعاه بأن يقول الشعر بدون مقدمات حيث قال [22]

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت ا البلوى صباح مسا

أما أبو البقاء الرندي فقد عرف أيضا في هذا المجال الذي أبكى الأندلس بقصيدته التي رثى فيها الأندلس بعد غزو الكاثوليك و استيلاءهم عليها حيث ينعي الرندي سقوط الحضارة الإسلامية في الأندلس ويروي ما حدث من تغير حال البلاد وغربة الإسلام في مدن ازدهرت فيها علوم الدين والدنيا على يد علماء المسلمين بفقدان الأندلس، حيث قال فيها[23] :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كا سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضي كل سيف للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

وأهمية رثاء المدن أنه يكشف عن جوانب ثرية من التاريخ السياسي بين المسلمين والنصارى في الأندلس، كما يكشف جانبا من النقد الذاتي الذي واجه بع الأندلسيون أنفسهم حين أدركوا أن الانغماس في حياة اللهو أدى إلى سقوط راية الجهاد وأن ملوك الطوائف حين حرصوا على ملكهم الفردي أضاعوا ملكا أعظم[24]

خاتمة :

بعد هذه الدراسة حول الرثاء في الأندلس الذي خص الأوطان والمدن والمماليك نستنتج مجموعة من النتائج وهي :

– الرثاء في اللغة أو الاصطلاح له معاني تصب كلها في الحزن والبكاء والتوجع والتعزية .

– يعتبر رثاء المدن من المواضيع المهمة في تاريخ الشعر العربي وهو نوع من أنواع الرثاء في الشعر.

– مفهوم الوطن م مفهوم قديم وتطور عبر العصور وهذا ما تعكسه مختلف أشعار الشعراء، حيث كانت نزعة الحنين إلى الوطن شائعة عندهم.

– لقد ظهر شعر رثاء المدن والممالك في الأندلس بحلة جديدة، فشرع الشعراء في تصوير التخريب الذي ألحقه الأعداء بالحواضر الإسلامية في الأندلس ومن بين المدن التي تم رثاءها بلنسية ، واشبيليا ، وبني الأفطس،البصرة.

قائمة الهوامش:

(1)– ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، مادة (رثا).

(2)– م .مجهول : الرثاء في الشعر العربي اطلع عليه بتاريخ 30–10–2019 www.aklukah.net

(3)– الخليل بن أحمد : العين، تحقيق مهدي المخزومي، دار ومكتبة الهلال،القاهرة ،ج8 ، ص :234.

(4)– أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا والحكم ، تحقيق محمد إبراهيم الجمل ،دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع ،ص :45.

(5)– شهاب الدين النويري : نهاية الأرب، فنون الادب تحقيق يحي الشامي،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ج5 ، ص:160–161.

(6)– أبو البقاء صالح الرندي :الوافي في نظم القوافي، دار الكتب الوطنية ، الجامعة الأردنية ، ص :28

(7)– الفيروز أبادي: القاموس المحيط والقابوس الوسيط، www.al–eman.com

(8)– الرازي: مختار الصحاح، مكتلة لبنان ،1957 ، مادة (حنن).

(9)– وهب رومية:شعرنا القديم والنقد الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس 1996، ع207، ص :163 .

(10)– ابن منظور: لسان العرب، مادة(وطن) .

(11)– الزمخشري:أساس البلاغة، دار الكتب العلمية ،2007، مادة(وطن).

(12)– الفيروز آبادي:القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، 2005، مادة (وطن).

(13)– ابن منظور: لسان العرب، مادة (غنا).

(14)– المصدر نفسه : مادة (أرض) .

(15)– المصدر نفسه: مادة (عهد).

(16)– محمد مصطفى أبو شوارب:جماليات النص الشعري قراءة في أمالي القالي دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2005، ص :60.

(17)– ياسمين صلاح : الرثاء في الشعر الأندلسي ،20 ديسمبر 2021 (12:23)، al mrsal.com

(18)– ابن الرمي:الديوان، شرح وتعليق عبد الأمير علي منشورات دار مملكة الهلال، بيروت ، ط1، ص:131–132.

(19)– عبد الملك بن بدرون البستي: شرح قصيدة ابن عبدون ، مطبعة السعادة ، ط1 ، ص :911

(20)– ابن خفاجة : الديوان ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ،2013 ، ص :354

[21]– مهدي عواد الشموط : الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين ، إشراف حمدي منصور، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية ،2010 ، ص :165 .

[22]– المقري: نفح الطيب، المطبعة الأزهرية، مصر، ط1،ج2 ، ص:448

[23]– النزلاوي: رثاء المدن والمماليك ،السبت 10ماي 2008 (2:03)، caessar393.voo.com

[24]– عباس صالح :أبو البقاء الرندي الشاعر الذي أبكى الأندلس ، 16نوفمبر 2020، aldonvanenews.com

قائمة المصادر والمراجع :

1- ابن خفاجة : الديوان، دار القلم، بيروت ، لبنان ،2013

2-ابن الرومي:الديوان، شرح وتعليق عبد الأمير علي منشورات دار مملكة الهلال، بيروت ، ط1.

3- ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت.

4- أبو البقاء صالح الرندي:الوافي في نظم القوافي، دار الكتب الوطنية ، الجامعة الأردنية .

5- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا والحكم ، تحقيق محمد إبراهيم الجمل ،دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع .

6- الخليل بن أحمد : العين، تحقيق مهدي المخزومي، دار ومكتبة الهلال،القاهرة ،ج8 .

7- الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان ،1957.

8- الزمخشري:أساس البلاغة، دار الكتب العلمية ،2007

9- شهاب الدين النويري: نهاية الأرب، فنون الأدب تحقيق يحي الشامي، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ج5 .

10- عبد الملك بن بدرون البستي: شرح قصيدة ابن عبدون ، مطبعة السعادة ، ط1 .

11- الفيروز آبادي:القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، 2005.

12-محمد مصطفى أبو شوارب:جماليات النص الشعري قراءة في أمالي القالي دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2005.

13- مهدي عواد الشموط : الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين ، إشراف حمدي منصور، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية ،2010 .

قائمة المجلات :

14- وهب رومية : شعرنا القديم والنقد الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس 1996، ع207.

قائمة المواقع الالكترونية :

15- عباس صالح :أبو البقاء الرندي الشاعر الذي أبكى الأندلس ، 16نوفمبر 2020،aldonvanenews.com

16- الفيروز أبادي: القاموس المحيط والقابوس الوسيط، www.al-eman.com

17- النزلاوي: رثاء المدن والمماليك ،السبت 10ماي 2008 (2:03)، caessar393.voo.com

18- ياسمين صلاح : الرثاء في الشعر الأندلسي ،20 ديسمبر 2021 .

19- م .مجهول: الرثاء في الشعر العربي اطلع عليه بتاريخ 30-10-2019 www.aklukah.net (12:23)، al mrsal.com